الرد على الطاعنين في مصدر القرآن الكريم

إعــداد

د / عبدالوهاب محمد عبدالله سليم

الأستاذ المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن

بكلية الدراسات الإسلامية للبنات فرع القرين

جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين ورحمه الله للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبة أجمعين .

وبعد ،،،،

فمنذ نزول القرآن الكريم إلى وقتنا الحاضر وأعداء الحق الكارهون للإسلام واقفون له بالمرصاد، يدبرون له المكائد ويثيرون حوله الشبه ليصدوا الناس عنه ويشككوا المؤمنين في دينهم ومن ضمن هذه المكائد وهذه الشبه الطعن في مصدر القرآن الكريم ، وأنه لا صلة له بالله عز وجل وأن دعوى محمد صلى الله عليه وسلم أن هذا القرآن من عند الله كذب وافتراء بل هو من وحي خياله وبنات أفكاره ، أو تلقاه من معلم من البشر أو تلقفه من عالم آخر هو عالم الجن والشياطين وأن مسألة الوحي ونزوله على محمد والحالة التي كانت تعتريه أثناء تلبسه به لا حقيقة لها بل ربما تكون حالة نفسية أو عقلية أو مس من الجن أو نحو ذلك من الأمراض التى تتعلق بعالم الأشباح والشياطين .

ولهذا أردت أن أبرز هذه الشبهة لتفنيدها والرد عليها وقطع الطريق على أعداء الإسلام الذين يريدون هدم هذا الدين بتقويض بنائه وهدم أركانه ونقض أساسة بقطع الصلة بينه وبين رب العالمين ، وقد ذكرت فى هذا البحث الشبه التى أثارها المشركون حول مصدر القرآن الكريم فى عصر التنزيل وهى مطابقة لما يتفوه به أعداء الإسلام فى كل زمان ومكان.

وقد ذكرت رد القرآن الكريم على هذه الشبه من خلال النصوص القرآنية التى تناولت هذا الجانب وما قام به المفسرون والعلماء المعاصرون من توضيح لهذه الآيات وتفنيد لهذه الشبه وردهم عليها .

وقد تناولت هذا البحث فى مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث

أولاً / المقدمة ، وفيها : أهمية الموضوع ومحتوياته .

ثانيًا / التمهيد ، وفيه : بيان تعريف القرآن الكريم ومصدره باختصار .

ثالثًا / المبحث الأول : دعواهم أن القرآن من عند محمد صلى الله عليه وسلم .

وفيه شبهتان : الأولى : دعواهم أن محمدًا قد اختلق القرآن من نفسه —

الثانية : دعواهم أن القرآن من قبيل الشعر .

رابعًا / المبحث الثاني : دعواهم أن محمدًا صلى الله عليه وسلم قد تعلم القرآن من معلم من البشر ، وفيه ثلاث شبه :

الأولى : دعواهم أن محمدًا قد أخذ القرآن من بحيرى الراهب أو ورقة بن نوفل .

الثانية : دعواهم أن محمدًا قد تعلم القرآن من رجل أعجمي في مكة .

الثالثة : دعواهم أن محمدًا قد تعلم القرآن من علماء أهل الكتاب .

خامسًا / المبحث الثالث : دعواهم أن القرآن من وحي الشياطين .

وفيه شبهتان : الأولى : دعواهم أن القرآن تنزلت به الشياطين .

الثانية : دعواهم أن محمدًا مجنون والقرآن من أثر الجنون .

سادسًا / الخاتمة ، وفيها :

توصيات البحث .

الفهارس .

أسال الله عز وجل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه تعالى وأن يجعله فى ميزان حسناتنا ورحمة لوالدينا وجميع المومنين . وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

والحمد لله رب العالمين

د عبدالوهاب سليم

– التمهيد

تعريف القرآن الكريم في اللغة والاصطلاح :–

* القرآن في اللغة : مصدر مرادف للقراءة ، ومنه قوله تعالى " إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ " ثم نقل من هذا المعنى المصدري وجعل اسمًا للكلام المعجز المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم من باب إطلاق المصدر على مفعوله .

واصطلاحًا : عرفه بعض العلماء بأنه الكلام المعجز المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم المكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته

* مصدر القران الكريم :–

من المعلوم أن مصدر القران الكريم هو الوحي الإلهي وأن محمداً صلى الله عليه وسلم قد تلقاه من جبريل و جبريل تلقاه من رب العزة تبارك وتعالى وقد بين القران الكريم ذلك في آيات كثيرة منها قوله تعالى "وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ" , وقال سبحانه "قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ" , وقال سبحانه وتعالى "وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ" .

وقد بينت السنة النيوية ذلك في حديث عائشة رضي الله عنها حيث قالت (أول ما بديء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة من النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه (وهو التعبد) الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ. قال ما أنا بقارئ. فأخذه فغطه الثانية حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله فقال اقرأ قال ما أنا بقاريء فأخذه فغطه الثالثة ثم أرسله فقال "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ".

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أحوال الوحي معه في حديث عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول كيف يأتيك الوحي فقال رسول الله عليه وسلم (أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس – وهو أشده علي – فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال , وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول) . قالت عائشة : ولقد رأيت الوحي ينزل عليه في اليوم الشديد البرد وإن جبينه يتصبب عرقا.

بهذه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية يكون قد ثبت لنا الوحي بالأدلة الشرعية من الكتاب والسنة النبوية فقد أخبر به الصادق المعصوم صلى الله عليه وسلم الذي أيده ربه بالمعجزات التي تدل على صدقه في دعواه.

وليس من مجال بحثنا إثبات الوحي أو عدمه فكثير ممن أثاروا الشبه حول مصدر القران الكريم لم ينكروا الوحي فمنهم أهل الكتاب الذين يؤمنون به ولا ينكرونه ومنهم المشركون في عهد النبي صلى الله عليه وسلم الذين يعرفون أخباره وكانوا يتمنونه لأنفسهم كما أخبر القران الكريم عنهم ذلك في قوله تعالى "وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ" , وقوله سبحانه "وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ", فهم لا ينكرون حقيقة الوحي ولكنهم ينكرونه بالنسبة لمحمد صلى الله عليه وسلم ويقولون إن ما جاء به محمد لا علاقة له بالوحي بل هو من تلقاء نفسه أو تعلمه من غيره ونسبه زورا وبهتانا لرب العالمين.

وسوف نعرض هذه الشبه التي أثارها أعداء الاسلام حول مصدر القرآن الكريم وسنقوم بتفنيدها والرد عليها من خلال المباحث الآتية : ...

المبحث الأول : دعواهم أن القرآن من عند محمد :-

حينما ادعى أعداء الإسلام والمعارضون للقرآن هذه الدعوى ونسبوا القرآن الكريم إلى محمد صلى الله عليه وسلم نراهم قد تشعبوا في هذه النسبة ؛ فمرة يقولون إنه افتراء.

وأخرى يقولون إنه شعر.

ومن خلال هذا المبحث سوف نعرض ما ادعاه المشركون فى شبهتين ثم نقوم بالرد عليهما وذلك على النحو التالي :-

الشبهة الأولى :

دعواهم أن القرآن افتراء وأن محمدًا صلى الله عليه وسلم قد اختلقه من نفسه ونسبه إلى الله كذبًا وزورا.

وقد بين القرآن الكريم ذلك في آيات كثيرة منها : قوله تعالى " وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا " ، وقوله سبحانه " مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ * أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ " فهذه الآيات الكريمات تبين هذه الشبهة التى أثارها المشركون حول القرآن الكريم وهى أنه ليس من عند الله بل هو من صنع محمد صلى الله عليه وسلم ونسبه زوراً الى الله عز وجل .

الرد على هذه الشبهة :

يمكننا الرد على هذه الشبهة من عدة وجوه :

الوجه الأول : إن كان هذا القرآن قد اختلقه محمد الأمي فليأتوا هم بقرآن مثله وهم أكثر منه فصاحة وبلاغة ، وما اشتهر أهل مكة في شيء أكثر مما اشتهروا به من الفصاحة والبلاغة فقد جعلوا للكلام سوقًا يتبارون فيه الشعر والنثر وكل ألوان الأدب ، وظهرت عندهم المعلقات ، وقد تحداهم القرآن الكريم في أكثر من مرة أن يأتوا بقرآن مثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله ، وما زال التحدي باقٍ حتى هذه اللحظة قال تعالى : "أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ

إِن كَانُوا صَادِقِينَ" ، وقال سبحانه "أَم يَقولونَ افتَراهُ قُل فَأتوا بِعَشرِ سُوَرٍ مِثلِهِ مُفتَرَياتٍ وَادعوا مَنِ استَطَعتُم مِن دونِ اللَّهِ إِن كُنتُم صادِقينَ"

وقال تبارك وتعالى : "وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ "

قال الحافظ بن كثير – رحمه الله – أي إن كانوا صادقين في قولهم تقوله وافتراه فليأتوا بمثل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من هذا القرآن فإنهم لو اجتمعوا وجميع أهل الأرض من الجن والإنس ما جاءوا بمثله ولا بعشر سور من مثله ولا بسورة من مثله.

وقال الإمام الألوسي – رحمه الله – المراد من الآية التحدي وتعجيز بلغاء العرب المرتابين منه عن الإتيان بما يضاهيه ، فمقتضى المقام أن يقال لهم : معاشر الفصحاء المرتابين في أن القرآن من عند الله ائتوا بمقدار أقصر سورة من كلام البشر محلاة بطراز الإعجاز ونظمه ، وما ذكر يدل على هذا إذا كان "من مثله" صفة سورة سواء كان الضمير – لـ "ما" أو "للعبد" لأن معناه ائتوا بمقدار سورة تماثله في البلاغة كائنة من كلام مثل هذا العبد في البشرية،فهو معجز للبشر عن الإتيان بمثله، أو ائتوا بمقدار سورة من كلام هو مثل هذا المنزل.

ونلحظ أن القرآن الكريم أثار حفيظتهم في التحدي فتحداهم أن يأتوا بمثله فما استطاعوا ثم كسر شوكتهم فتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات فما استطاعوا ثم أرغم أنوفهم فتحداهم أن يأتوا بسورة مثله فما استطاعوا، ثم ذل كبرياءهم فتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فما استطاعوا .

ثم دعاهم أن يستدعوا ما يحبون من أنصارهم ليعينوهم في هذا الأمر وكان في ذلك ترقي في تحديهم وتدني في حجتهم ومعارضتهم فقال أولاً "وَادعُواْ شُهَدَائَكُم مِن دُونِ اللهِ إِن كُنتُم صَادِقِينَ" ثم قال ثانياً وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ثم تحداهم بأنه إذا اجتمع أهل الأرض وكان من ورائهم الجن فلن يأتوا بمثل هذا القرآن. قال تعالى "قُل لَئِنِ اجتَمَعَتِ الإِنسُ وَالجِنُّ عَلى أَن يَأتوا بِمِثلِ هذَا القُرآنِ لا يَأتونَ بِمِثلِهِ وَلَو كانَ بَعضُهُم لِبَعضٍ ظَهيرًا" فمهما أوتوا من قوة في الفصاحة والبيان ومهما حشدوا لذلك من إنس وجان لا يستطيعون أن يأتوا بشيء من مثل هذا القرآن .

الوجه الثاني : أن كفار مكة لم يسمعوا من محمد صلى الله عليه وسلم مثل هذا القرآن قبل بعثته فكيف يتهمونه هذا الاتهام ؟

وقد ذكر الحق سبحانه وتعالى ذلك حينما عرض أهل مكة على النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بقرآن غير هذا القرآن الذي فيه عيب آبائهم وسب آلهتهم وكثرة التحريم وذكر الجحيم فكان رد القرآن الكريم عليهم أن هذا القرآن ليس من عند محمد بل هو وحي من الله بدليل أنه مكث فيهم عمرًا طويلاً لم يتكلم بمثل هذا القرآن .

قال تعالي : " وَإِذا تُتلى عَلَيهِم آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذينَ لا يَرجونَ لِقاءَنَا ائتِ بِقُرآنٍ غَيرِ هذا أَو بَدِّلهُ قُل ما يَكونُ لي أَن أُبَدِّلَهُ مِن تِلقاءِ نَفسي إِن أَتَّبِعُ إِلّا ما يوحى إِلَيَّ إِنّي أَخافُ إِن عَصَيتُ رَبّي عَذابَ يَومٍ عَظيمٍ * قُل لَو شاءَ اللَّهُ ما تَلَوتُهُ عَلَيكُم وَلا أَدراكُم بِهِ فَقَد لَبِثتُ فيكُم عُمُرًا مِن قَبلِهِ أَفَلا تَعقِلونَ" .

والحق أن عرض المشركين لهذا العرض وطلبهم لهذا المطلب يبين سوء نيتهم وخبث طويتهم فهم أرادوا بذلك أن يضعوا النبي صلى الله عليه وسلم في اختبار صعب فإن أجاب طلبهم عرفوا أنه كذاب وتحقق مقصودهم بأن هذا القرآن لا علاقة له بالله .

قال الشيخ رشيد رضا – رحمه الله – : والأظهر في قولهم هذا أنه صلى الله عليه وسلم بلغهم أن هذا القرآن من عند الله وأوحاه الله إليه لينذرهم به ، وتحداهم بالإتيان بمثله أو بسورة من مثله فعجزوا وكانوا في ريب من كونه وحيًا من عند الله لبشر مثلهم ، وفي ريب من كونه من عند محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو لم يكن يفوقهم في الفصاحة والبلاغة ولا في شيء من العلم بل كانوا يرونه دون كبار فصحائهم من بلغاء الشعراء ومصاقع الخطباء فأرادوا أن يمتحنوه بمطالبته بالإتيان بقرآن غيره في جملة ما بلغهم من سوره في أسلوبها ونظمها ودعوتها أو بالتصرف بالتغيير والتبديل لما يكرهونه منه كتحقير آلهتهم وتكفير آبائهم حتى إذا فعل هذا أو ذاك كانت دعواه أنه كلام الله أوحاه إليه منقوضة من أساسها وكان قصارى أمره أنه امتاز عليهم بهذا النوع من البيان بقوة نفسية فيه كانت خفية عنهم كأسباب السحر لا بوحي الله إليه وهذا ما يزعمه بعض الإفرنج ومقلدتهم في عصرنا .اهـ

ولكن كان رد القرآن الكريم حاسمًا لهذه القضية مخزيًا لهم فاضحًا لأمرهم فقال تعالى : "قُل ما يَكونُ لي أَن أُبَدِّلَهُ مِن تِلقاءِ نَفسي إِن أَتَّبِعُ إِلّا ما يوحى إِلَيَّ إِنّي أَخافُ إِن عَصَيتُ رَبّي عَذابَ يَومٍ عَظيمٍ *قُل لَو شاءَ اللَّهُ ما تَلَوتُهُ عَلَيكُم وَلا أَدراكُم بِهِ فَقَد لَبِثتُ فيكُم عُمُرًا مِن قَبلِهِ أَفَلا تَعقِلونَ"

يقول الإمام الشعراوي – رحمه الله – كان يجب أن يتعقلوا تلك القضية بمقدماتها ونتائجها ؛ فلا يلقوا لأفكارهم العنان ؛ ليكذبوا ويعاندوا ، فالأمر بسيط جدًا .

يقول الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : "قُل لَو شاءَ اللَّهُ ما تَلَوتُهُ عَلَيكُم وَلا أَدراكُم بِهِ فَقَد لَبِثتُ فيكُم عُمُرًا مِن قَبلِهِ أَفَلا تَعقِلونَ"

إذن : فالمقدمة التي يريد الحق سبحانه وتعالى أن يقنع بها الكافرين أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أرسله الله رسولاً من أنفسهم ،

إذن : فحياته صلى الله عليه وسلم معروفة معلومة لكم ؛ لم يجلس إلى معلم عندكم ولا إلى معلم خارجكم ، ولم يتلُ كتابًا ، فإذا كان الأمر كذلك ، فيجب أن تأخذوا من هذه مقدمة وتقولوا : فمن أين جاءت له هذه الحكمة فجأة ؟

فإذا أوضح لكم : أن القرآن ليس من عندي ؛ كان يجب أن تصدقوه ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم يعزوه إلى خالقه وربه سبحانه . اهـ

الوجه الثالث : أن الحق سبحانه وتعالى توعد محمدًا في كتابه بالعقاب إذا افترى على الله الكذب وتقول في القرآن ما ليس منه فضلاً عن يأتي بجملته.

قال تعالى : "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" .

وقال سبحانه : "وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ"

قال الإمام الفخر الرازي : بيّن سبحانه أنهم متى سمعوا القرآن قالوا إن محمدًا افتراه واختلقه من عند نفسه ومعنى الهمزة في قوله تعالى "أم يقولون افتراه" للإنكار والتعجب كأنه قيل دع هذا واسمع المنكر العجيب ، ثم إنه تعالى بيّن بطلان شبهتهم فقال إن افتريته على سبيل الفرض فإن الله تعالى

يعاجلني بعقوبة بطلان ذلك الافتراء، وأنتم لا تقدرون على دفعه عن معاجلتي بالعقوبة فكيف أقدم على هذه الفرية وأعرض نفسي لعقابه ؟ ثم قال تعالى "هُوَ أَعلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ" أي تندفعون فيه من القدح في وحي الله تعالى والطعن في آياته وتسميته سحرًا تارة وإفتراء أخرى "كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَينِي وَبَينَكُم" يشهد لي بالصدق ويشهد عليكم بالكذب والجحود ومعنى ذكر (العلم والشهادة) وعيد لهم على إقامتهم في الطعن والشتم . اهـ

الوجه الرابع : تقرير القرآن الكريم نفسه أن محمدًا صلى الله عليه وسلم متبع للوحي الذي يأتيه من ربه وليس له دخل في القرآن إلا البلاغ والبيان وأن القرآن نزل بلفظه ومعناه من عند الله عز وجل.

قال تعالى : "وَإِذا لَم تَأتِهِم بِآيَةٍ قالوا لَولَا اجتَبَيتَها قُل إِنَّما أَتَّبِعُ ما يوحى إِلَيَّ مِن رَبّي هذا بَصائِرُ مِن رَبِّكُم وَهُدًى وَرَحمَةٌ لِقَومٍ يُؤمِنونَ"

وقال سبحانه : "وَإِذا تُتلى عَلَيهِم آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذينَ لا يَرجونَ لِقاءَنَا ائتِ بِقُرآنٍ غَيرِ هذا أَو بَدِّلهُ قُل ما يَكونُ لي أَن أُبَدِّلَهُ مِن تِلقاءِ نَفسي إِن أَتَّبِعُ إِلّا ما يوحى إِلَيَّ إِنّي أَخافُ إِن عَصَيتُ رَبّي عَذابَ يَومٍ عَظيمٍ "

وقال تبارك وتعالى : "قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ "

فهذه الآيات تشير بطريق القصر إلى أن مهمة النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن لم تكن إلا إتباع الوحي والبلاغ عن رب العالمين وأن القرآن ليس من صنعته صلى الله عليه وسلم ولا من قريحته .

يقول الدكتور محمد عبدالله دراز – رحمه الله – القرآن صريح في أنه : " لا صنعة فيه لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولا لأحد من الخلق ، وإنما هو منزل من عند الله بلفظه ومعناه" .

والعجب أن يبقى بعض الناس في حاجة إلى الاستدلال على الشطر الأول من هذه المسألة ، وهو أنه ليس من عند محمد .

في الحق أن هذه القضية لو وجدت قاضيًا يقضي بالعدل لاكتفى بسماع هذه الشهادة التي جاءت بلسان صاحبها على نفسه ، ولم يطلب وراءها شهادة شاهد آخر من العقل أو النقل ؛ ذلك أنها

ليس من جنس (الدعاوي) فتحتاج إلى بينة ، وإنما هي من نوع (الإقرار) الذي يؤخذ به صاحبه ، ولا يتوقف صديق ولا عدو في قبوله منه ، فأي مصلحة له صلى الله عليه وسلم في أن ينسب بضاعته لغيره ، وينسلخ منها إنسلاخًا ؟ على حين أنه كان يستطيع أن ينتحلها فيزداد بها رفعة وفخامة شأن، ولو انتحلها لما وجد من البشر أحدًا يعارضه ويزعمها لنفسه .

الذي نعرفه أن كثيرًا من الأدباء يسطون على آثار غيرهم فيسرقونها أو يسرقون منها ما خف حمله وغلت قيمته وأمنت تهمته ، حتى أن منهم من ينبش قبور الموتى ويلبس من أكفانهم ويخرج على قومه في زينة من تلك الأثواب المستعارة . أما أن أحدًا ينسب لغيره أنفس آثار عقله وأغلى ما تجود به قريحته فهذا ما لم يلده الدهر بعد .

ولو أننا افترضناه لما عرفنا له تعليلاً معقولاً ولا شبه معقول اللهم إلا شيئًا واحدًا قد يحيك في صدر الجاهل ، وهو أن يكون هذا الزعيم قد رأى أن في (نسبته القرآن إلى الوحي الإلهي) ما يعينه على استصلاح الناس بإستيجاب طاعته عليهم ونفاذ أمره فيهم ، لأن تلك النسبة تجعل لقوله من الحرمة والتعظيم ما لم يكن لو نسبه إلى نفسه .

وهذا قياس فاسد في ذاته ، فاسد في أساسه .

أما أنه فاسد في ذاته فلأن صاحب هذا القرآن قد صدر عنه الكلام المنسوب إلى نفسه والكلام المنسوب إلى الله تعالى فلم تكن نسبة ما نسبه إلى نفسه بناقصة من لزوم طاعته شيئًا ، ولا نسبة ما نسبه إلى ربه بزائدة فيها شيئًا ، بل استوجب على الناس طاعته فيهما على السواء فكانت حرمتهما في النفوس على سواء ، وكانت طاعته من طاعة الله ، ومعصيته من معصية الله فهلا جعل كل أقواله من كلام الله تعالى لو كان الأمر كما يهجس به ذلك الوهم .

وأما فساد هذا القياس من أساسه فلأنه مبني على افتراض باطل ، وهو تجويز أن يكون هذا الزعيم من أولئك الذين لا يأبون في الوصول إلى غاية إصلاحية أن يعبروا إليها على قنطرة من الكذب والتمويه وذلك أمر يأباه علينا الواقع التاريخي كل الإباء ، فإن من تتبع سيرته الشريفة في حركاته وسكناته ، وعباراته وإشاراته ، في رضاه وغضبه ، في خلوته وجلوته لا يشك في أنه كان أبعد الناس عن المداجاة والمواربة ، وأن سره وعلانيته كانا سواء في دقة الصدق وصرامة الحق في جليل الشؤون

وحقيرها ، وأن ذلك كان أخص شمائله وأظهر صفاته قبل النبوة وبعدها كما شهد ويشهد به أصدقاؤه وأعداؤه إلى يومنا هذا . اهـ

وهذا الإقرار منه صلى الله عليه وسلم بأن هذا القرآن من عند الله يعد منقبة له صلى الله عليه وسلم فهو لم ينسب القرآن لنفسه ولم يدع زورًا أنه من وحي عقله ، ولو فعل ذلك لحمل على الأعناق وما كذبه قومه آنذاك وسيرتقي عندهم مكانة لم يرتقها أحد قبله، ولكن أنى لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يكذب على ربه، ويكتم ما استودعه عنده؟

الوجه الخامس :لو نظرنا في سيرته صلى الله عليه وسلم لوجدنا أنه أحيانًا كان يتعرض لبعض المواقف التي تحتاج إلى أن يلفق فيها قرآنًا لو كان هذا القرآن من عنده ومن قريحته

نأخذ مثلا لذلك ما أشاعه المنافقون في حق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها واتهامهم لها بالفاحشة وهي تمثل حجر الزاوية لهذا الدين فهي ابنة الصديق وزوج نبي هذه الأمة وبانيها وبنقض هذا الحجر يتزلزل البنيان وتتصدع الجدران , وقد أبطأ الوحي وانقطع شهرا كاملاً والمنافقون يرجفون ويتحدثون في هذا الأمر، ولو تخيلنا هذا الموقف وعشنا هذه الحالة وسلطنا الأضواء على من تضرر من هذه الشائعة لعرفنا الحاجة آنذاك لقرآن يتلى ليزول الضرر وتنتهي الفتنة.

فهاهي ذي عائشة الفتاة الغرة الحديثة السن الغافلة التي لا تعرف عن هذه الأمور شيئا كما تقول عنها بريرة (جارية حديثة السن تنام عن عجينها فتأتي الداجن فتأكله) فهاهي ذي تتهم في شرفها وتطعن في عفتها ويلوك الناس سيرتها , ومما زادها هما وحزنا أن أباها الذي تهابه وزوجها الذي تحبه قد عرفا ذلك فزاد مرضها وتقلص الدمع من عينها واحتارت في أمرها حتى قالت لأهلها والله لا أدري ماذا اقول لكم لا أقول لكم إلا كما قال أبو يوسف فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون.

وهاهو ذا أبو بكر الصديق – رضي الله عنه في وقاره وحساسيته –كما قال صاحب الظلال – يرمى في عرضه , في ابنته زوج محمد صاحبه الذي يحبه ويطمئن إليه ونبيه الذي يؤمن به ويصدقه وإذا الألم يفيض على لسانه وهو الصابر المحتسب القوي على الألم فيقول والله ما رضينا بهذا في جاهلية أفنرضى به في الإسلام ؟ وهي كلمة تحمل من المرارة ما تحمل .

وكذلك الرجل المسلم الطيب الطاهر المجاهد في سبيل الله صفوان بن المعطل , وهو يرمي بخيانة نبيه في زوجه , فيرمي بذلك في إسلامه وفي أمانته وفي شرفه وفي حميته وفي كل ما يعتز به صحابي وهو من ذلك كله بريء , وهو يفاجأ بهذا الاتهام الظالم وقلبه بريء من تصوره.

ثم هاهو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو رسول الله وفي الذروة من بني هاشم هاهو ذا يرمى في بيته وفي من؟ في عائشة التي حلت في قلبه في مكان الإبنة والزوجة والحبيبة , وهاهو ذا يرمى في طهارة فراشه وهو الطاهر الذي تفيض منه الطهارة , وهاهو ذا يرمى في صيانة حرمته وهو القائم على الحرمات في أمته وهاهو ذا يرمى في حياطة ربه له وهو الرسول المعصوم من كل سوء.

هاهو ذا يرمى في هذا كله ويتحدث الناس به في المدينة شهرا كاملا فلا يملك أن يضع لهذا كله حلا.أهـ

إن الصورة في المدينة كانت قاتمة والأجواء ملبدة والإشاعة وصلت الى منتهاها وكادت جموع المسلمين أن تنخرط فيها ضجيج في المسجد وعراك في البيوت وريبة في النفوس وكادت الفتنة أن تقضي على هذا الدين من جذوره أما كان في مقدور محمد – صلى الله عليه وسلم — لو كان القران من عنده أن يأتي بقران تخمد به الفتنة وتنتهي به الشائعة وترتاح به العباد وتسكن به البلاد؟

فماذا كان يمنعه لو أن أمر القران إليه كما قال الدكتور دراز أن يتقول هذه الكلمة الحاسمة من قبل ليحمي بها عرضه ويذب بها عن عرينه وينسبه الى الوحي السماوي لتنقطع ألسنة المتخرصين؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

الوجه السادس : جاء في القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تحمل اللوم والعتاب على النبي صلى الله عليه وسلم وتنقد أقواله وأفعاله فتخطئه أحيانًا وتعنفه أحيانًا أخرى ، ولولا صدقه صلى الله عليه وسلم في البلاغ عن ربه لكتمها وحجبها عن أعين الناس وسمعهم .

من هذه الآيات ما يلي :

ما جاء في عتابه صلى الله عليه وسلم في أسرى بدر ، قال تعالى : "ما كانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكونَ لَهُ أَسرى حَتّى يُثخِنَ فِي الأَرضِ تُريدونَ عَرَضَ الدُّنيا وَاللَّهُ يُريدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزيزٌ حَكيمٌ * لَولا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُم فيما أَخَذتُم عَذابٌ عَظيمٌ " .

ما جاء في عتابه صلى الله عليه وسلم في الاستغفار لقرابته من المشركين ، قال تعالى : "ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذينَ آمَنوا أَن يَستَغفِروا لِلمُشرِكينَ وَلَو كانوا أُولي قُربى مِن بَعدِ ما تَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُم أَصحابُ الجَحيمِ ".

ما جاء في عتابه صلى الله عليه وسلم في الاستئذان للمنافقين في القعود عن القتال ، قال تعالى : " عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُم حَتّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذينَ صَدَقوا وَتَعلَمَ الكاذِبينَ ".

ما جاء في عتابه صلى الله عليه وسلم في همه بتنحيه لبعض فقراء المسلمين عنه حتى يجالس المشركين لدعوتهم ، قال تعالى : "وَلا تَطرُدِ الَّذينَ يَدعونَ رَبَّهُم بِالغَداةِ وَالعَشِيِّ يُريدونَ وَجهَهُ ما عَلَيكَ مِن حِسابِهِم مِن شَيءٍ وَما مِن حِسابِكَ عَلَيهِم مِن شَيءٍ فَتَطرُدَهُم فَتَكونَ مِنَ الظّالِمينَ * وَكَذلِكَ فَتَنّا بَعضَهُم بِبَعضٍ لِيَقولوا أَهؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيهِم مِن بَينِنا أَلَيسَ اللَّهُ بِأَعلَمَ بِالشّاكِرينَ* وَإِذا جاءَكَ الَّذينَ يُؤمِنونَ بِآياتِنا فَقُل سَلامٌ عَلَيكُم كَتَبَ رَبُّكُم عَلى نَفسِهِ الرَّحمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُم سوءًا بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِن بَعدِهِ وَأَصلَحَ فَأَنَّهُ غَفورٌ رَحيمٌ * وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ وَلِتَستَبينَ سَبيلُ المجرِمينَ "

وقال تعالى : "وَاصبِر نَفسَكَ مَعَ الَّذينَ يَدعونَ رَبَّهُم بِالغَداةِ وَالعَشِيِّ يُريدونَ وَجهَهُ وَلا تَعدُ عَيناكَ عَنهُم تُريدُ زينَةَ الحَياةِ الدُّنيا وَلا تُطِع مَن أَغفَلنا قَلبَهُ عَن ذِكرِنا وَاتَّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمرُهُ فُرُطًا * وَقُلِ الحَقُّ مِن رَبِّكُم فَمَن شاءَ فَليُؤمِن وَمَن شاءَ فَليَكفُر إِنّا أَعتَدنا لِلظّالِمينَ نارًا أَحاطَ بِهِم سُرادِقُها وَإِن يَستَغيثوا يُغاثوا بِماءٍ كَالمهلِ يَشوِي الوُجوهَ بِئسَ الشَّرابُ وَساءَت مُرتَفَقًا "

ما جاء في العتاب عليه في إخفائه في نفسه ما أمره الله به من تطليق زينب بنت جحش من زيد بن حارثة وتزويجها من نفسه لإبطال أمر التبني الذي كان موجودًا في الجاهلية . قال تعالى : "وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا "

ما جاء في العتاب عليه في تحريم الحلال على نفسه ابتغاء مرضات أزواجه . قال تعالى : "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ "

ما جاء في العتاب عليه في شأن إعراضه عن عبد الله بن أم مكتوم وترحيبه بصناديد المشركين أملاً في إسلامهم . قال تعالى : "عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى *"

وكثير من الآيات في هذا الشأن عتاب وتقريع ولوم وتعنيف . بالله عليكم لو كان هذا القرآن بيد محمد صلى الله عليه وسلم أكان ينشر هذا على العالمين يقرأه الناس صباحًا ومساءً إلى أن تقوم القيامة؟ ألم يكن من الأولى أن يستر نفسه ويستبقى حرمة رأيه؟ ولكنه محمد صلى الله عليه وسلم الذي جعل نفسه مع جبريل الذي يبلغه رسالة ربه في موضع التلميذ الذي يقبل توجيه أستاذه ولا يأنف من تعاليم ربه فسرعان ما يرجع عن رأيه ويقرر ما وجه إليه ربه ولا يستنكف أن يكون عبداً له طوع أمره ورهن إشارته ولا يتأفف من نصائحه حتى إنه ليلقى من عاتبه الله فيه فيهش له ويرحب به ويقول أهلاً بمن عاتبنى فيه ربى .

الوجه السابع : أن أنباء الماضي التي ذكرت في القرآن الكريم لا يمكن أن تكون من قريحته صلى الله عليه وسلم ولا سبيل إلى معرفتها إلا بالتلقي وليس للعقل دخلٌ فيها ولا تدرك بالاستنباط

فالقران الكريم حينما تحدث عن الأمم الغابرة في القرون الأولى كقوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وتحدث عن يوسف ودخول بني اسرائيل مصر وتحدث عن داود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى ابن مريم عليهم جميعاً أفضل السلام هل حينما تحدث عن هذه الأمم وعن هؤلاء الرسل بالتفصيل كان ذلك صادرا عن عقل محمد أو من وحي خياله؟ .. الإجابة بالطبع لا. لأن محمدًا صلى الله عليه وسلم لم يعايش هذه الاحداث ولم يشاهدها حتى يعمل عقله فيها بل كان بينه وبينها آلاف السنين ولذلك نجد القران نفسه يبرز هذه الحقيقة عقب حديثه عن هذه الامم .

يقول تعالى عقب قصة هود : " تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين " .

وعقب قصة يوسف يقول سبحانه " وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون " وعقب قصة موسى يقول عز وجل : " وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ولكنا أنشأناقرونا فتطاول عليهم العمر ثاويا في أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ولكن كنا مرسلين وما

كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما اتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون" .

وعقب قصة مريم يقول تبارك وتعالى " ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم يختصمون" وإذا كان محمد صلى الله عليه وسلم لم يعايش هذه الأحداث فهو أيضا لم يطالع الكتب السابقة التي ذكرتها فهو أمي لا يقرأ ولا يكتب, وكونه جاء بها وهو لم يعايشها ولم يدرسها وتحدى معارضيه بها كان يجب أن يثير ذلك اهتمامهم ويتعجبون من أمره ويقولوا كيف بمحمد الأمي الذي عاش في البادية أن يأتي بهذه الاخبار التي تضرب جذورها في أعماق التاريخ ويأخذوا من هذه الأخبار دليلا على صدقه في دعواه أن هذا القران وحي من عند الله.

يقول الدكتور دراز – رحمه الله – : نعم إنها لعجيبة حقًا : رجل أمّي بين أظهر قوم أميين . يحضر مشاهدهم – في غير الباطل والفجور – ويعيش معيشتهم مشغولاً برزق نفسه وزوجه وأولاده . راعيًا بالأجر . أو تاجرًا بالأجر . لا صلة له بالعلم والعلماء ؛ يقضي في هذا المستوى أكثر من أربعين سنة من عمره . ثم يطلع علينا فيما بين عشية وضحاها فيكلمنا بما لا عهد له به في سالف حياته وبما لم يتحدث إلى أحد بحرف منه قبل ذلك . ويبدي لنا من أخبار تلك القرون الأولى ما أخفاه أهل العلم في دفاترهم . أفي مثل هذا يقول الجاهلون إنه استوحى عقله واستلهم ضميره ؟ أيّ منطق يسوّغ أن يكون هذا الطور الجديد العلمّي نتيجة طبيعية لتلك الحياة الماضية الأمية ؟ إنه لا مناص في قضية العقل من أن يكون لهذا الانتقال الطفريّ سرّ آخر يُلتمس خارجًا عن حدود النفس وعن دائرة المعلومات القديمة . وإن ملاحدة الجاهلية وهم أجلاف الأعراب في البادية كانوا في الجملة أصدق تعليلاً لهذه الظاهرة وأقرب فهمًا لهذا السر من ملاحدة هذا العصر ، إذ لم يقولوا كما قال هؤلاء إنه استقى هذه الأخبار من وحي نفسه ، بل قالوا إنه لابد أن تكون قد أمليت عليه منذ يومئذ علوم جديدة ، فدرس منها ما لم يكن قد درس ، وتعلّم ما لم يكن يعلم " وَكَذلِكَ نُصَرِّفُ الآياتِ وَلِيَقولوا دَرَستَ" "وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا"

ولقد صدقوا ؛ فإنه درسها ، ولكن على أستاذه الروح الأمين .واكتتبها ، ولكن من صحفٍ مكرمةٍ مرفوعةٍ مطهرةٍ ، بأيدي سفرةٍ ، كرامٍ بررةٍ

ذلك شأن ما في القرآن من الأنباء التاريخية ، لا جدال في أن سبيلها النقل لا العقل ، وأنها تجئ من خارج النفس لا من داخلها. اهـ

الوجه الثامن : ما جاء في القرآن الكريم من نبوءات عن المستقبل القريب أو البعيد وتحدى القرآن بها معارضيه ثم أتت على وفق ما أخبر لم يتخلف منها شيء لا يمكن أن يكون ذلك مبنيًا على الفراسة أو التخمين أو التنجيم الذي قد يصدق مرة ويكذب مرات .

وناخذ مثالين على ذلك فيما يلى :

المثال الأول تحدى القران الكريم لأعدائه بما تتحكم فيه نفوسهم وفي إطار اختيارهم كما تحدي اليهود الذين ادعوا أن الدار الاخرة خالصة لهم من دون الناس فلن يدخل الجنة أحد سواهم ولن تمسهم النار إلا أياما معدودات فجاء القرآن متحديا لهم فقال "قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ".

كما تحداهم بقوله تعالى "سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا" قبل أن يقولوا وكما حكم القران الكريم على أبي لهب بأنه سيصلى نارًا ذات لهب وهو لايزال حيا فقال سبحانه "تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ" , وكان من الممكن أن يبطل هؤلاء هذا الدين لو قالت اليهود إنا نتمنى الموت أو سكتوا ولم يقولوا :{ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ } أو قال أبو لهب أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

يقول الإمام الشعراوي في خواطره حول قوله تعالى "وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا " إنهم لن يتمنوا الموت أبدا بل يخافون والله تبارك وتعالى حين أنزل هذه الآية .. وضع قضية الإيمان في يد اليهود ... بحيث يستطيعون إن أرادوا أن يشككوا في هذا الدين .... كيف؟ ألم يكن من الممكن عندما نزلت هذه الآية أن يأتي عدد من اليهود ويقولون ليتنا نموت نحن نتمنى الموت يا محمد .. فادع لنا ربك يميتنا ألم

يكن من الممكن أن يقواوا هذا ولو نفاقا ولو رياء ليهدموا هذا الدين ؟ ولكن حتى هذه لم يقولوها ولم تخطر ببالهم هـ.

لا شك أن هذا التحدي صادر من قوة فوق قوة البشر ومحمد صلى الله عليه وسلم لا يستطيع أن يُقبل على هذا التحدي من تلقاء نفسه إلا إذا علم أنه يركن إلى ركن شديد يملك قلوب الناس ويعلم ذوات صدورهم.

يقول الإمام الفخر الرازي – رحمه الله – إنه – عليه الصلاة والسلام – مع تقدمه في الرأي والحزم وحسن النظر في العاقبة والوصول الى المنصب الذي وصل إليه في الدنيا والدين .

والوصول إلى الرياسة العظيمة التي انقاد لها المخالف قهرا والموافق طوعا لا يجوز وهو غير واثق من جهة ربه بالوحي النازل عليه أن يتحداهم بأمر لا يأمن عاقبة الحال فيه ، ولا يأمن من خصمه أن يقهره بالدليل والحجة لأن العاقل الذي لم يجرب الأمور لا يكاد يرضى بذلك فكيف الحال من أعقل العقلاء , فيثبت أنه عليه الصلاة والسلام ما أقدم على تحرير هذه الأدلة إلا وقد أوحى الله تعالى إليه بأنهم لا يتمنونه. أهـ

فهذا التحدي بهذه القوة في قوله تعالى "وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا " وفي قوله تعالى "سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ " وقوله "سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ " لا يمكن أن يكون صادرا عن العقل البشري الذي يخبر صاحبه أحيانا عن بعض النبوءات وهو يخفق قلبه وترتعد بوادره وتضطرب أسنانه ويشخص ببصره الى شفتي من تحداه يخشى أن يهمس بكلمة تبطل مزاعمه وإذا مرت هذه المرة لا يعاود الكرة خشية أن يستجمع قواه ويأتي بما تحداه لكننا نرى النبي صلى الله عليه وسلم كالطود الشامخ في تحديه مستمرا فيه ولا يكون كذلك إلا لمعرفته أن هذا التحدي من الله الذي يؤيده ويرعاه.

المثال الثانى تحدى القرآن الكريم بانتصار الروم على الفرس في بضع سنين.

قال تعالى: "الم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ولكن أكثر الناس لا يعلمون" .

روى المفسرون أن فارس غزوا الروم فوافوهم بأذذريعات وبصرى فغلبوا عليهم فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم بمكة فشق ذلك عليهم وفرح الكفار بمكة وشمتوا فلقوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا إنكم أهل الكتاب والنصارى أهل كتاب وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم. فأنزل الله تعالى "الم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ".

يقول الدكتور دراز .. لقد كان الإخبار بهذا النصر وبأنه كائن في وقت معين إخبارًا بأمرين كل منهما خارج عن متناول الظنون . ذلك أن دولة الروم كانت قد بلغت من الضعف حدًا يكفي من دلائله أنها غُزيت في عقر دارها وهُزمت في بلادها كما قال تعالى "فِي أَدْنَى الْأَرْضِ" ، فلم يكن أحد يظن أنها تقوم لها بعد ذلك قائمة ، فضلاً عن أن يحدَّد الوقت الذي سيكون لها فيه النصر.

ولذلك كذَّب به المشركون وتراهنوا على تكذيبه على أن القرآن لم يكتف بهذين الوعدين ، بل عززهما بثالث ، حيث يقول "وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ" إشارة إلى أن اليوم الذي يكون فيه النصر هناك للروم على الفرس سيقع فيه هاهنا نصر للمسلمين على المشركين . وإذا كان كل واحد من النصرين في حد ذاته مستبعدًا عند الناس أشد الاستبعاد فكيف الظن بوقوعهما مقترنين في يوم ؟ لذلك أكده أعظم التأكيد بقوله : "وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ"

ولقد صدق الله وعده ، فتمت للروم الغلبة على الفرس ، بإجماع المؤرخين في أقلَّ من تسع سنين.

وكان يوم نصرها هو اليوم الذي وقع فيه النصر للمسلمين على المشركين في غزوة بدر الكبرى أهـ.

وبعد تحقيق هذا الوعد هل نستطيع أن نقول إن محمداً صلى الله عليه وسلم وهو جالس في مكة قد أعمل عقله في هذا الحدث الذى وقع فى الشام واستطاع بخبرته العسكرية وفراسته العقلية أن يحصر قوة الروم التي كانت تملك تقريبا نصف العالم آنذاك وقوة الفرس التي تملك النصف الآخر ثم وازن بين القوتين وحكم بأن النصر سيكون لأحد الطرفين , إننا نرى في عالمنا الآن وقد وصل الناس إلى الذروة في التقدم العلمي في وسائل الاتصالات والاستخبارات ومع ذلك نرى كثيرا من الفشل في نبوآتهم مما ترتب على ذلك خراب الكثير من البلاد وقتل وتشريد الكثير من العباد.

إن محمدا صلى الله عليه وسلم لا يستطيع أن يتنبأ بمثل هذه الأحداث التي ربما تغير مسار التاريخ دون أن يخبر بذلك من قوة هي اكبر من قوة الفرس والروم هى قوة الله الذى يعلم عواقب الأمور.

وبعد ما ذكرنا هذه النماذج من أنباء الغيب التي تحدث القرآن الكريم عنها هل يبقي لعاقل أن يقول إن هذا القرآن من عند محمد صلى الله علية وسلم وأنه وليد عقله وثمرة ذكائه .

ولو كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم الغيب من تلقاء نفسه بعيدا عن الوحي ما أصابه سوء كما قال سبحانه " وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ"

وما حدث يوم أحد أكبر دليل على ذلك فلو كان يعلم الغيب لعلم ما فعله الرماة من ترك مواقعهم والتفاف خالد بن الوليد على جيش المسلمين وقتل الكثير منهم حتى شج وجهه صلى الله عليه وسلم وكسرت رباعيته وكاد أن يقتل لولا عصمة الله له .

ولو كان يعلم الغيب ما هم بالدفاع عن المجرم ابن ابيريق الذي سرق الدرع وألصق التهمة باليهودي حتى نزل قول الله تعالى "إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا"

ولو كان يعلم الغيب ما قال عن نفسه : إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه فمن قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذ منه شيئا فإنما أقطع له قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها.

فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم عاجزا عن معرفة ما خفي عنه يوم أحد وهو على بعد خطوات ، ولم يعرف المجرم الذي سرق الدرع وهو في مدينته ، ولم يتفرس المخطئ من المصيب وهما شاخصان أمامه فكيف يخبر عن الغيب المطلق الذي لم يدركه حس ولا عقل أو يخبر عن الماضي السحيق الذي تضرب جذوره في الزمن البعيد أو المستقبل الذي لم تلده الليالي والأيام والسنون.

هل ترى أن محمدًا الأمي جاء بكل هذه الأخبار من تلقاء نفسه لابد أنه استقى كل ذلك من العليم الخبير.

الشبهة الثانية / دعواهم أن القرآن الكريم من قبيل الشعر :-

وقد أورد الحق سبحانه وتعالى هذه الشبهة في مواضع عدة في القرآن الكريم .

منها قوله تعالى:"بَل قالوا أَضغاثُ أَحلامٍ بَلِ افتَراهُ بَل هُوَ شاعِرٌ فَليَأتِنا بِآيَةٍ كَما أُرسِلَ الأَوَّلونَ" .

وقوله سبحانه : "وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ" .

وقوله عز وجل : "أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ".

فهذه الآيات الكريمات تبين أن المشركين وخاصة الكبراء منهم أرادوا أن يخفوا حقيقة القرآن الكريم عن عامة الناس ليصدوهم عن الدين الحق فطعنوا في القرآن الكريم فقالوا عنه إنه شعر وإن محمدًا شاعر واعتمدوا في ذلك على ما جاء فى القرآن الكريم من كلام موزون وما امتاز به من جمال الأسلوب وتناسق الآيات وروعة الآداء .

الرد على هذه الشبهة :

يمكن أن نرد على هذه الشبهة بعدة أمور :-

الأمر الأول : أن ما جاء في القرآن من كلام موزون ليس من قبيل الشعر لأن الشعر هو قول موزون مقفي قصد به الشعر وإلا كان قول البائعين الذين يروجون سلعتهم وينادون عليها بكلام موزونٍ شعرًا وكلام الأطفال الموزون الذي يصدر منهم بدون قصد وهم يلعبون شعرًا. كما قال العلامة الألوسي رحمه الله : لو اعتبر في كون الكلام شعرًا إمكان استخراج كلام منظوم منه لكان كثير من كلام الأطفال شعرًا . فإن كثيرًا من كلامهم يمكن فيه ذلك والظاهر إنهم إنما قصدوا رميه صلى الله عليه وسلم بأنه وحاشاه ثم حاشاه يأتي بكلام مخيل له لا حقيقة له ، ولماً كان ذلك غالبًا في الشعراء الذين يأتون بالمنظوم من الكلام عبروا عنه عليه الصلاة والسلام بشاعر وعما جاء به بالشعر . اهـ

وبمثل هذا يرد على من قال إن محمدًا صلى الله عليه وسلم قد قال الشعر يوم حنين حينما قال :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

فما قاله النبي صلى الله عليه وسلم يومها كان كلاماً موافقاً لوزن الشعر لكن ليس بشعر ولكنه قولٌ صادف وزنًا ليس قصدًا .

قال الإمام الفخر الرازى- رحمه الله -: ذلك ليس بشعر لعدم قصده الى الوزن والقافيه و على هذا لو صدر من النبى صلى الله عليه وسلم ، كلام كثير موزون مقفى لايكون شعرا لعدم قصد اللفظ قصدا أوليا ويؤيد ما ذكرنا أنك إذا تتبعت كلام الناس فى الأسواق تجد فيه ما يكون موزونا واقعا فى بحر من بحور الشعر ولا يسمى المتكلم به شاعرا ولا الكلام شعراً لفقد القصد إلى اللفظ أولا.اهـ.

الأمر الثاني : أن الله سبحانه وتعالى نفى عنه تعلم الشعر وبيّن أنه لا يليق به .

قال تعالى : "وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ".

فالآية تشير إلى أنه صلى الله عليه وسلم لم يتعلم الشعر قط ولا من جبلته ذلك وهذا ما قرره الواقع ولو قال صلى الله عليه وسلم شعرًا قبل نزول القرآن لشاع ذلك وعرفه الناس ويسر ذلك على معارضيه الطعن في القرآن وهم كانوا أحوج ما يكون لمثل ذلك حتى يأخذوا منه نقطة لانطلاق الشائعات وركيزة لإلصاق تهمة الشعر به عليه صلى الله عليه وسلم وما أعياهم التخبط في وصفه وسرعة التنقل في سوق التهم إليه مرة شاعر وأخرى ساحر وثالثة كاهن ورابعة مجنون وخامسة أضغاث أحلام كما أخبر القرآن الكريم عنهم في قوله تعالى : "بَل قالوا أَضغاثُ أَحلامٍ بَلِ افتَراهُ بَل هُوَ شاعِرٌ فَليَأتِنا بِآيَةٍ كَما أُرسِلَ الأَوَّلونَ" وسرعة التنقل في سرد التهم يدل على كذب المدعي ومعرفته أن المخاطب لا يصدقه فيما يدعيه ولذلك ينتقل من تهمة إلى تهمة حتى لا يعطي فرصة للمخاطب في التفكير والرد .

بل إن المشركين أنفسهم اعترفوا أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ليس بشعر . اسمع إلى قول الوليد بن المغيرة حينما اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا ، ويرد قولكم بعضه بعضًا . قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيًا نقول به ، قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول كاهن . قال : لا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول مجنون . قال : ما هو

بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول شاعر . قال : ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر.

وليس معنى قوله تعالى "وَمَا عَلَّمنَاهُ الشِّعرَ" أنه صلى الله عليه وسلم تنقصه أدواته من البلاغة والثقافة والأدب والحس المرهف والمشاعر الجياشة وغير ذلك من أدوات الشعر عند الناس ولكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يصفي كل وجدانه صلى الله عليه وسلم من ثقافات البشر حتى لا يختلط الوحي الإلهي بشيء من علوم البشر فيكون زريعة لاتهامه بأنه من قريحته ولذلك جعله الله أميًّا كما ولدته أمه خاليًا من علوم الأرض ليكون وعاءً لما يأتيه من علوم السماء .

قال الإمام الشعراوي – رحمه الله – وقد يُظن أن الله لم يعلمه الشعر لأن الشعر يحتاج إلى ثقافة لغوية وعلم بالأوزان والقوافي ، ولابد له من الحس المرهف والأذن الموسيقية إلى آخر هذه الأدوات التي يحتاجها الشاعر وربما لم تتوفر هذه الأدوات لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما أنها لم تتوفر لكثيرين غيره .

فيرد الله تعالى هذا الظن ، ويقول : "وَمَا يَنبَغِي لَهُ" ؛ يعني : لم نُعلمه الشعر لنقص في إمكانياته ، فلو أراد أن يقول شعرًا لَقَال الشعر على أحسن ما يُقال ، لكن لا ينبغي له ذلك ؛ لأن مهمة الرسول خلاف مهمة الشاعر ، فأغلب الشعر في الكذب وفي الشر ، فإذا دخل في الخير ضَعُفَ ولاَنَ ، ذلك لأن طبيعة الشعر أن ينطلق ويُحلِّق في الخيال ، وأن يقول الشاعر ما يحلو له أيًا كانت غايته ؛ لذلك قالوا : أعذب الشعر أكذبه .

فقوله تعالى : "وَمَا يَنبَغِي لَهُ" يس(٣٦) ؛ دفع عن رسول الله الاتهام بأن طبيعته ليست شاعرية ، أو أنه غير مُرْهف الحس ، وأن أذنه غير موسيقية ، إلى آخر هذا الهراء ، وكيف يُتهم بهذا من علّمه الله وباشرت أذنه الوحي ؟

الأمر الثالث : أن غالب الشعراء يتبعهم الغواة الضالون وأنهم في كل وادٍ يهيمون ؛ فمرةً يمدحون وأخرى يقدحون ومرة يعظمون وأخرى يحقرون وأنهم يقولون ما لا يفعلون فيرغبون في الكرم ويرغبون عنه وينفرون من البخل ويفرون إليه . قال تعالى : "وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ " وليس هذا شأن محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم

قال العلامة الألوسي – رحمه الله – معنى الآية : والشعراء يجاريهم ويسلك مسلكهم ويكون من جملتهم الغاوون الضالون عن السنن ، الحائرون فيما يأتون وما يذرون ، ولا يستمرون على وتيرة واحدة في الأفعال والأقوال والأحوال لا كغيرهم من أهل الرشد المهتدين إلى طريق الحق الثابتين عليه . وقوله تعالى : "أَلَمَ تَرَ أَنَّهُم فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُون" استشهاد على أن الشعراء إنما يتبعهم الغاوون وتقرير له . والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية للإشارة إلى أن حالهم من الجلاء والظهور بحيث لا يختص برؤيته راء دون راء . وضمير الجمع "أنهم" للشعراء أي ألم تر أن الشعراء في كل واد من أودية القيل والقال وفي كل شعب من شعاب الوهم والخيال ، وفي كل مسلك من مسالك الغي والضلال ، يهيمون على وجوههم لا يهتدون إلى سبيل معين من السبل ، بل يتحيرون في سباسب الغواية والسفاهة ، ويتيهون في تيه الصلف والوقاحة ، ديدنهم تمزيق الأعراض المحمية ، والقدح في الأنساب الطاهرة السنية ، والغزل والابتهار والتردد بين طرفي الإفراط والتفريط في المدح والهجاء .

"وَأَنَّهُم يَقُولُونَ مَا لاَ يَفعَلُونَ" من الأفاعيل غير مكترثين بما يستتبعه من اللوم فكيف يتوهم أن يتبعهم في مسلكهم ذلك ويلحق بهم وينتظم في سلكهم من تنزهت ساحته عن أن يحوم حولها شائبة الاتصاف بشيء من الأمور المذكورة ، واتصف بمحاسن الصفات الجليلة ، وتخلق بمكارم الأخلاق الجميلة ، وحاز جميع الكمالات القدسية ، وفاز بجملة الملكات السنية الأنسية ، مستقرًا على أقوم منهاج ، مستمرًا على صراط مستقيم لا يرى له العقل السليم من هاج ، ناطقًا بكل أمرٍ رشيد ، داعيًا إلى صراط الله تعالى العزيز الحميد ، مؤيدًا بمعجزات قاهرة ، وآيات ظاهرة مشحونة بفنون الحكم الباهرة ، وصنوف المعارف الباهرة ، مستقلة بنظم رائق ، وأسلوب فائق ، أعجز كل منطيق ماهر ، وبكت كل مفلق ساحر ، هذا وقد قيل في تنزيهه صلى الله عليه وسلم عن أن يكون من الشعراء : إن أتباع الشعراء الغاوون وأتباعه عليه الصلاة والسلام ليسوا سواء . اهـ.

المبحث الثاني : دعواهم أن محمدًا قد تعلم القرآن من معلم من البشر

بعد ما بيّنا فى المبحث السابق أن المتربصين بالإسلام قديمًا وحديثًا لم يستطيعوا أن يثبتوا أن القرآن الكريم من عند محمد صلى الله عليه وسلم نبين في هذا المبحث أنهم راحوا يبحثون عن مصدر آخر للقرآن للكريم وهو أن محمداً قد تعلمه من غيره وقد سجل القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى "ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر"

وليس من المعقول أن يكون معلمه من قومه الأميين الذين لا يعلمون من أمر الدين شيئًا . ، فهم ليست عندهم دراية بالكتاب ولا بالأنبياء . قال تعالى : "لِتُنذِرَ قَومًا مَا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُم فَهُم غَافِلُونَ" ، فهم ليسوا علماء بل أهل جاهلية حتى سمي عصرهم بعصر الجاهلية فإذا كان هذا حالهم فهل يصلح أن يخرج منهم معلم يعلم محمدًا صلى الله عليه وسلم هذا العلم الذي استقى منه الشرق والغرب ؟

ولذا فتشوا عن معلم من أهل الكتاب أو ممن تعلم منهم لينسبوا القرآن إليه وإذا بحثنا عن أولى العلم الذين خالطهم محمد صلى الله عليه وسلم نرى أنه لم يلق إلا بحيرى الراهب فى صغره وورقة بن نوفل فى بداية دعوته أو ما ادعاه المشركون من تعلمه صلى الله عليه وسلم القرآن من رجل أعجمى فى مكة أو من اختلط بهم النبى صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب فى يثرب وغيرها ولذا سنبرز هذا ونرد عليه فى الشبه التالية :

الشبهة الأولى : دعواهم أن محمدًا قد أخذ العلم من بحيري الراهب أو من ورقة بن نوفل .

الرد على هذه الشبهة :

وقبل الرد على هذه الشبهة نستعرض باختصار لقاء محمد صلى الله عليه وسلم ببحيري وورقة بن نوفل .

أولاً / قصة بحيري ولقاء الرسول به :-

قال ابن إسحاق : إن أبا طالب خرج في ركب تاجرًا إلى الشام ، فلما تهيأ للرحيل ، وأجمع المسير صب به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يزعمون ، فرق له ، وقال : والله لأخرجن به معي ، ولا يفارقني ، ولا أفارقه أبدًا. فخرج به معه ، فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام ، وبها راهب يقال له : بحيرى في صومعة له ، وكان إليه علم أهل النصرانية ، فلما نزلوا قريبًا من صومعته صنع لهم طعامًا كثيرًا ، وذلك فيما يزعمون ، عن شيء رآه وهو في صومعته ، يزعمون أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في صومعته في الركب حين أقبلوا وغمامة تظله من بين القوم .

فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم ، لحداثة سنه ، في رحال القوم تحت الشجرة .

فلما نظر بحيرى في القوم لم ير الصفة التي يعرف ويجد عنده ، فقال : يا معشر قريش! لا يتخلفن أحدٌ منكم عن طعامي ، قالوا له : يا بحيرى ، ما تخلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام وهو أحدث القوم سنًّا ، فقال : لا تفعلوا ، ادعوه ، فليحضر هذا الطعام معكم . فلما رآه بحيرى ، جعل يلحظه لحظًا شديدًا ، وينظر إلى أشياء من جسده ، قد كان يجدها عنده من صفته ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا ، قام إليه بحيرى ، فجعل يسأله عن أشياء من حاله من نومه وهيئته وأموره فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره ، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته ، ثم نظر إلى ظهره ؛ فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده .

قال ابن إسحاق : فلما فرغ ، أقبل على عمه أبي طالب ، فقال له : ما هذا الغلام منك ؟

قال : ابني . قال له بحيرى : ما هو بابنك ، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًّا ، قال : فإنه ابن أخي ، قال : فما فعل أبوه ؟ قال : مات وأمه حبلى به ، قال : صدقت ، فارجع بابن أخيك

إلى بلده ، واحذر عليه يهود ، فوالله لئن رأوه ، وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شرًّا ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسرع به إلى بلاده أ هـ.

ثانيًا / قصة لقائه صلى الله عليه وسلم بورقة بن نوفل :

ذكرالامام السهيلى عن ابن إسحاق بسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة : إني إذا خلوت وحدي سمعت نداءً وقد خشيت والله أن يكون لهذا أمر . قالت : معاذ الله ما الله ليفعل ذلك بك . فوالله إنك لتؤدي الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث ، فلما دخل أبو بكر وليس رسول الله صلى الله عليه وسلم عندها ثم ذكرت له خديجة ذلك ، فقالت : يا عتيق اذهب مع محمد إلى ورقة . فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ أبو بكر بيده فقال انطلق بنا إلى ورقة بن نوفل . فقال : ومن أخبرك ؟ قال : خديجة . فانطلقا إليه فقصا عليه . فقال : إني إذا خلوت وحدي سمعت نداءً خلفي : يا محمد يا محمد ، فأنطلق هاربًا في الأرض . فقال له : لا تفعل ، إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول لك ثم ائتني فأخبرني . فلما خلا ناداه : يا محمد قل بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين حتى بلغ ولا الضالين . قل : لا إله إلا الله . فأتى ورقة فذكر له ذلك فقال له ورقة : أبشر ثم أبشر فأنا أشهد أنك الذي بشر به ابن مريم وأنك على مثل ناموس موسى وأنك نبي مرسل وأنك ستؤمر بالجهاد بعد يومك هذا ، ولئن أدركني ذلك لأجاهدن معك .

بعدما بينا هاتين الروايتين في لقائه صلى الله عليه وسلم ببحيرى الراهب وورقة بن نوفل يمكن أن نقول هل من المعقول أن يكون بحيرى هذا قد لقن محمدًا صلى الله عليه وسلم القرآن في هذا اللقاء العابر الذي لم يستغرق بضع دقائق أو سويعات معدودة وكان مشوبًا بالخوف والحذر من أحبار اليهود ؟

كيف يكون هذا الإنجاز من هذا الراهب لهذا الطفل آنذاك وجبريل عليه السلام قد أوحي القرآن للنبي صلى الله عليه وسلم في ما يربو على ثنتين وعشرين سنة وكان النبي صلى الله عليه وسلم يلقى من المشقة والتعب حتى يتفصد جبينه عرقًا وكان يحرك شفتيه كالطفل حرصًا على قراءته وجمعه . ثم إن محمدًا صلى الله عليه وسلم بعد ما رجع من عنده إلى مكة وهو طفل قد نسي هذا اللقاء وانخرط بعد ذلك في أعباء الحياة واشتغل بالرعي ثم التجارة ولم يتشوف إلى هذه النبوءة التى سمعها من هذا الراهب. إذن هذا اللقاء ليس له أثر في حياة محمد صلى الله عليه وسلم قط ، ولو كان لبحيرى فضل على محمد صلى الله وسلم وشاهد من كان معه أنه صلى الله عليه وسلم قد تلقى

منه شيئًا من قرآن أو تتميمات أو عبارات ما سكتوا عن هذا الأمر ، ولكنهم لم يروا من بحيرى إلا أنه راهب تفرس في غلامهم خيرًا كما كان هذا معهودًا عندهم إذا أقبل راهب أو رجل صالح إلى بلادهم يعرضون عليه الأطفال لينظر فيهم ويتفرس حالهم ليأخذوا منه البركة ويذكر من مستقبلهم ما يسرهم كما هو حال أناس كثيرين حتى في عصرنا .

ولو شاهدوا في هذا اللقاء أن محمدًا قد تلقى من بحيرى شيئًا أو أخذ منه مكتوبًا ما سكت كفار مكة على ذلك فهم كانوا أحرص الناس على إبطال دعوته صلى الله عليه وسلم التي أقضت مضاجعهم وأرهقت فكرهم وسبت آلهتهم وسفهت أحلامهم .

أما أمر ورقة بن نوفل فقد التقى به محمد صلى الله عليه وسلم في بداية بعثته بعد مجيء الوحي إليه ونزول أول دفعة من القرآن عليه ذهب ليستشيره في أمره باعتبار أنه اعتنق النصرانية سابقاً وعنده دراية بالوحي وعلم أهل الكتاب .

ثم إن ورقة لما سمع منه صلى الله عليه وسلم جله وآمن به وأبدى استعداده لخدمته ودعا الله أن يبقيه لنصرته ولكن وافته المنية قبل ذلك فإن كان ورقة قد مات في مهد دعوته صلى الله عليه وسلم فكيف علمه كل هذا القرآن الذي ظل ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم حتى قبل وفاته صلى الله عليه وسلم بتسع ليال .

فالقول بأن بحيري وورقة هما المعلمان لمحمد صلى الله عليه وسلم هذا القرآن قول مناقض للواقع فبحيري قد لقي محمد صلى الله عليه وسلم وهو طفل صغير وقد نزل القران الكريم عليه في سن الأربعين.

وورقة قد مات في بداية الوحي ولو أخذ النبي صلى الله عليه وسلم من بحيري وورقة شيئا ما سكت المؤرخون عن ذلك الحدث ولا كتم كفار مكة مثل هذا فهو أمضى شبهة في إبطال دعوته وما لجأ الكفار إلى العديد من الشبه التي أثاروها حول الرسول صلى الله عليه وسلم والقران الكريم.

الشبهة الثانية : دعواهم أن محمدًا تعلم القرآن من رجل أعجمى في مكة

وقد صور القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى "ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لِسانُ الَّذي يُلحِدونَ إِلَيهِ أَعجَمِيٌّ وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبينٌ" .

واختلف المفسرون في هذا البشر الذي ادعى المشركون أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تعلم منه . فقيل هو عبد لبني الحضرمي صاحب كتب وكان اسمه جبرًا وكانت قريش تقول عبد بني الحضرمي يعلم خديجة وخديجة تعلم محمدًا . وقيل هو عبد لبني عامر بن لؤي يقال له يعيش وكان يقرأ الكتب ، وقيل عداس غلام عتبة بن ربيعة ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : كان بمكة غلام أعجمي رومي لبعض قريش يقال له بلعام وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمه الإسلام فقالت قريش هذا يعلم محمدًا من جهة الأعاجم.

والحاصل أن القوم اتهموه بأنه يتعلم هذه الكلمات من غيره ثم إنه يظهرها من نفسه ويزعم أنه إنما عرفها بالوحي وهو كاذب فيه .

قال الإمام الألوسي : وإنما لم يصرح القرآن الكريم باسم من زعموا أنه يعلمه عليه الصلاة والسلام مع أنه أدخل في ظهور كذبهم للإيذان بأن مدار خطئهم ليس بنسبته صلى الله عليه وسلم إلى التعلم من شخص معين بل من البشر كائنًا من كان . اهـ

الرد على هذه الشبهة :

لقد رد القرآن الكريم على هذه الشبهة في نفس الآية التي ذكرتها بقوله تعالى : "لِسانُ الَّذي يُلحِدونَ إِلَيهِ أَعجَمِيٌّ وَهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبينٌ"

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – أي فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على بني إسرائيل كيف يتعلم من رجل أعجمي ؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من عقل . اهـ

ونقل العلامة الألوسي قول الإمام البيضاوي والكرماني في الرد على هذه الدعوى فقال : وتقرير الإبطال – كما قال العلامة البيضاوي – يحتمل وجهين : أحدهما أن ما يسمعه من ذلك البشر كلام أعجمي لا يفهمه هو ولا أنتم ، والقرآن عربي تفهمونه بأدنى تأمل ، فكيف يكون مما تلقفه منه؟

وثانيهما : هب أنه تعلم المعنى باستماع كلامه ولكن لم يلقف منه اللفظ لأن ذلك أعجمي وهذا عربي والقرآن كما هو معجز باعتبار المعنى فهو معجزمن حيث اللفظ مع أن العلوم الكثيرة التي في القرآن لا يمكن تعلمها إلا بملازمة معلم فائق في تلك العلوم مدة متطاولة فكيف تعلم جميع ذلك من غلام سوقي سمع منه بعض المنقولات بكلمات أعجمية لعله لم يعرف معناها .

وقال الكرماني : المعنى أنتم أفصح الناس وأبلغهم وأقدرهم على الكلام نظمًا ونثرًا وقد عجزتم وعجز جميع العرب عن الإتيان بمثله فكيف تنسبونه إلى أعجمي ألكن وهو كما ترى .

وبالجملة فالتشبث في أثناء الطعن بمثل هذه الخرافات الركيكة دليل قوي على كمال عجزهم فقد راموا اجتماع اليوم والأمس واستواء السها والشمس .

فدعهم يزعمون الصبح ليلاً أيعمى الناظرون عن الضياء

وبعد هذه الردود التي أفحمت حجتهم وأبطلت شبهتهم نقول لو كان هذا الإدعاء صحيحًا ما الذي منعهم أن يتعلموا من هذا المعلم فيعارضوا ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فقد كانوا أحرص الناس على ذلك ؟ بل لو كان هذا البشر الذي ذكروه معلمًا حقًا ما الذي منعه هو أن يخرج للناس بهذا العلم لينال هذه المكانة وهذا الشرف ويخرج من ضائقته ويتحرر من عبوديته أم هو آثر تلميذه بذلك ؟

إن هذا الاتهام لا يقبله عقل ولا منطق ويدل على مدى تخبطهم وحيرتهم في مواجهة طوفان العلم الذي أغرقهم به محمد صلى الله عليه وسلم.

الشبهة الثالثة : دعواهم أن النبي صلى الله عليه وسلم تعلم القرآن من علماء أهل الكتاب .

الرد على هذه الشبهة :

إن الذي يطالع القرآن الكريم ويتدبر ما جاء فيه عن أهل الكتاب وعلمائهم يجده فاضحًا لهم مبينًا لغشهم وتزويرهم وضلال عقائدهم وتحريف كتبهم ونقض عهودهم وأكلهم أموال الناس بالباطل .

اقرأ مثلاً في سورة البقرة قوله تعالى : "أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ".

واقرأ في سورة آل عمران : "وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ".

وقوله تعالى : "وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ" .

وفي سورة النساء قوله تعالى : "يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلً "

وغير ذلك من الآيات ؛ فالقرآن مليء بمثل هذه الآيات التي تفضح أهل الكتاب ، فهل هذا مما أملاه علماؤهم على محمد صلى الله عليه وسلم ؟ هل رأيتم معلمًا يعلم تلميذه فضائح أستاذه وضلاله وتزويره وغشه

للناس وأكله أموال الناس بالباطل اللهم إلا أستاذا في مجلس اللهو ومواطن الفسق وحانات الرقص وحوانيت الخمر ، لكن لا نرى ذلك في حلقات الدرس وقاعات العلم ومحاريب العبادة .

والقرآن الكريم الذي يزعمون أنه من تعليم أهل الكتاب جاء مصدقا لما في كتبهم ومهيمنا عليها يقرر صحيحها ويكشف زيفها ويؤيد أو ينسخ أحكامها , قال تعالى : " وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ".

قال الخليل وأبو عبيدة : أي رقيبا على سائر الكتب السماوية المحفوظة عن التغيير حيث يشهد لها بالصحة والثبات ويقرر أصول شرائعها وما يتأيد من فروعها ويعين أحكامها المنسوخة. أهـ .

فالرسول صلى الله عليه وسلم هو إمام المرسلين وكتابه هو المهيمن على كتب السابقين وما يقال إنه تعلم من أهل الكتاب فهو قول باطل فهو معلمهم وأستاذهم .

جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبي صلى الله عليه وسلم فغضب غضبا شديدا وقال : أمتهوكون فيه يا ابن الخطاب؟ أي أشاكون فيها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية والذي نفسي بيده لو كان موسى بن عمران حيا ما وسعه إلا ان يتبعني.

فهذه مكانة محمد صلى الله عليه وسلم عند أنبيائهم فكيف تكون مكانته عند أتباعهم وهم قد حرفوا الدين ونبذوا الكتاب ، لا شك ان الله بعثه معلما لهم يصوب أخطائهم ويدعوهم إلى ترك ضلالهم ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

المبحث الثالث : دعواهم أن القرآن من وحي الشياطين

بعد ما أعيا المتربصين بالإسلام قديمًا وحديثًا البحث عن مصدر للقرآن الكريم في نفس محمد صلى الله عليه وسلم أو عند معلم له من البشر وقد فشلت كل محاولتهم في إثبات ذلك راحوا يبحثون عن مصدر جديد للقرآن الكريم فوق الأفق الإنساني في عالم آخر هو عالم الجن والشياطين فقالوا إن القرآن إما أن يكون تنزلت به الشياطين أو أن الجن قد مس محمدًا فهذا القرآن من أثر الجنون الذي أصابه .

وقد سجل القرآن الكريم ذلك ورد عليه في آيات كثيرة وسوف نوضح ذلك في هاتين الشبهتين .

الشبهة الأولى : دعواهم أن القرآن تنزلت به الشياطين

وقد رد القرآن الكريم على ذلك في الآيات التالية :-

قال تعالى في سورة الشعراء : "وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ " .

وقال سبحانه في نفس السورة : "هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ".

وقال تبارك وتعالى فى سور التكوير : "وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ* فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ "

من خلال هذه الآيات يمكن أن نبين رد القرآن الكريم على هذه الشبهة فيما يلي :

أولاً / أن القرآن الكريم بما فيه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير ليس من بغية الشياطين كما قال : "وَمَا يَنبَغِي لَهُم" لأن بغيتهم الفساد في الأرض وصد الناس عن الحق .

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – إنه ما ينبغي – أي للشياطين – أي ليس هو من بغيتهم ولا من طلبتهم لأن من سجاياهم الفساد وإضلال العباد وهذا فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونور

وهدى وبرهان عظيم فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة ، ولهذا قال تعالى : "وَمَا يَنبَغِي لَهُم" . اهـ

ثانيًا / أن الشياطين لا يستطيعون النزول بالقرآن لأنهم عن السمع معزولون كما قال تعالى : "إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ" .

قال الإمام الحافظ بن كثير : أي ولو ابتغى لهم ما استطاعوا ذلك قال الله تعالى : "لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ" ؛ فهم لن يصلوا إلى ذلك لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله ، لأن السماء ملئت حرسًا شديدً وشهبًا في مدة إنزال القرآن الكريم على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف وهذا من رحمة الله بعباده وحفظه لشرعه وتأييده لكتابه ولرسوله . اهـ

فقد حفظ الله القرآن من عبث الشياطين منذ نزوله في اللوح المحفوظ كما قال تعالى : "إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ".

وقال : "بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ " وحفظه عند نزوله إلى بيت العزة في السماء الدنيا فقبل بعثته صلى الله عليه وسلم كان الشياطين يسترقون السمع فلما بعثه الله عز وجل وأنزل القرآن إلى بيت العزة ملئت السماء حرسًا شديدًا وشهبًا كما أخبر القرآن الكريم بذلك في قوله تعالى : "وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا * وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا "

فالشياطين لا يستطيعون سرقة شئ من القرآن وإنزاله على أوليائهم فضلاً أن يكون القرآن الكريم من وحيهم .

ثالثًا : أن الشياطين تنزل على الأفاكين الآثمين من الكهنة المجرمين ولا تنزل على الأصفياء المخلصين من الأنبياء والمرسلين

قال تعالى "هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ".

قال الإمام الفخر الرازي – رحمه الله – اعلم أن الله تعالى أجاب عن هذه الشبهة من وجهين :

الأول : قوله تعالى "تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ" وذلك أن الكفار يدعون إلى طاعة الشيطان ومحمد صلى الله عليه وسلم يدعو إلى لعن الشيطان والبراءة منه .

الثاني : قوله "يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ" والمراد أنهم كانوا يقيسون حال النبي صلى الله عليه وسلم على حال سائر الكهنة فكأنه قيل لهم إن كان الأمر على ما ذكرتم فكما أن الغالب على سائر الكهنة الكذب فيجب أن يكون حال الرسول كذلك أيضًا ، فلما لم يظهر في إخبار الرسول صلى الله عليه وسلم عن المغيبات إلا الصدق علمنا أن حاله بخلاف حال الكهنة . اهـ

فمحمد صلى الله عليه وسلم المعروف بالصدق والأمانة الزكي النفس طاهر القلب لا يمكن أن تتلبس روحه بنفس الشيطان الخبيثة الشريرة فالأرواح جنوده مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف والروح التي تشع النور والخير لا يمكن أن تتآلف مع النفس التي ينبعث منها الشر بل إن نفس محمد صلى الله عليه وسلم الزكية قاومت قرنيتها الشيطانية فقوضت شرها وأطفأت نارها حتى سلمت وأسلمت .

روى الأمام مسلم بسنده عن عبدالله بن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . (ما منكم أحد إلا وله شيطان . قيل و لا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم)

رابعًا : أن هناك فرقًا بين القرآن وكلام الكهان فالقرآن لا يملك من يسمعه بإنصات و انصاف إلا أن يقول كما قالت الجن "إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا" . أما كلام الكهنة فما هو إلا تمتمات منقوصة وأسجاع مغلوطة وأهازيج مخلوطة .

كما أن القرآن الكريم ينشئ منهجًا متكاملاً لكل حركات الحياة بخلاف كلام الكهان الذي لا يعدوا إلا أن يكون حكمة موجزة أو أخبار مخلوطة من صدق يسير وكذب كثير .

والمشركون أنفسهم إن كانوا يروجون مثل هذه الشبهة ويلصقون بمحمد صلى الله عليه وسلم مثل هذه التهمة فهم يرددونها وفي قرارة أنفسهم أنهم خاطئون وقد رأينا فيما سبق أن الوليد بن المغيرة نفى أن يكون محمد كاهنًا وقال : لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه ، فهم يرددون هذه الشائعات للتشويش على النبي صلى الله عليه وسلم لصد الناس عنه لأنهم يعلمون تمامًا أنه لو تسمع أحد للقرآن لا يملك إلا الإستجابة له والإيمان به .

وإنا لنعلم أن أكابر قريش كانوا يصدون الناس عن القرآن ويتسللون هم خفية في الظلام للإستماع إليه من النبي صلى الله عليه وسلم لحلاوة منطقه وجمال أسلوبه وروعة آدائه وكانوا يعرفون صدق محمد صلى الله عليه وسلم ويقرون بأن القرآن حق من عند الله ولكن الكبر الذي يأنف التبعية والخوف على السلطة الزمنية جعلهم يقدحون في القرآن ويصدون الناس عنه فضلوا وأضلوا .

خامسًا : أن القرآن الكريم جاء بسب الشياطين ولعنهم .

قال تعالى "وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ" ، وقال سبحانه "اخرُج مِنها مَذءومًا مَدحورًا"

فسماه القرآن رجيمًا والرجيم الملعون المشئوم وكل مشتوم بقول ردئ أو سب فهو مرجوم وقد يجوز أن يكون قيل للشيطان رجيم لأن الله جل ثناؤه طرده من سماواته ورجمه بالشهب والثواقب.

ومعنى "مَذءومًا مَدحورًا" أي ملعونًا مطرودًا من رحمة الله فإذا كان القرآن من وحي الشيطان فهل ينزل الشيطان بسب نفسه .

الشبهة الثانية : دعواهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم مجنون وأن القرآن من أثر الجنون

وقد صور القرآن الكريم هذه الدعوى من المشركين في قوله تعالى "وَقالوا يا أَيُّهَا الَّذي نُزِّلَ عَلَيهِ الذِّكرُ إِنَّكَ لَمَجنونٌ" ، وقوله سبحانه "أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ " ، وقوله عز وجل "أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ "

فالآيات تشير إلى أن المشركين قد ادعوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مجنون وذلك لأنهم لا يتصورون مسألة الوحي الذي يدعية محمد صلى الله عليه وسلم وأن جبريل عليه السلام قد جاءه في الغار ، وكذلك الحالة التي كانت تغشاه أثناء تلبس الوحي به وتصبب جبينه بالعرق فإذا رأوا ذلك أو سمعوا عنه يقولوان إنه لمجنون .

قال الإمام الفخر – رحمه الله – واعلم أن الجهال من أهل مكة كانوا ينسبونه صلى الله عليه وسلم إلى الجنون لوجهين :

الأول : أن فعله عليه الصلاة والسلام كان مخالفًا لفعلهم وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام كان معرضًا عن الدنيا مقبلاً على الأخرى مشتغلاً بالدعوة إلى الله فكان العمل مخالفًا لطريقتهم فاعتقدوا فيه أنه مجنون .

وقال الحسن وقتادة : إن النبي صلى الله عليه وسلم قام ليلاً على الصفا يدعوا فخذًا فخذًا من قريش فقال : يابني فلان يابني فلان وكان يحذرهم بأس الله وعقابه فقال قائلهم : إن صاحبكم واظب على الصياح طوال هذه الليلة .

الثاني : أنه صلى الله عليه وسلم كان يغشاه حالة عجيبة عند نزول الوحي فيتغير وجهه ويصفر لونه ويعرض له حاله تشبه بالغشي فالجهال كانوا يقولون إنه لمجنون

الرد على هذه الشبهة :

لقد رد القرآن الكريم على هذه الشبهة من عدة وجوه :

الوجه الأول : دعاهم إلى التفكير في أمره صلى الله عليه وسلم . قال تعالى : "أَوَلَمْ يَتَفَكَّروا ما بِصاحِبِهِم مِن جِنَّةٍ"

وقال سبحانه : "قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ" .

فالآية الأولى تدعو إلى التفكر في أمر محمد صلى الله عليه وسلم وعدم الحكم عليه دون روية وتدبر فهو مصاحبهم طول عمره وملازم لهم في حركاتهم وسكناتهم ولم يجربوا عليه كذبًا قط وكانوا يتحاكمون إليه في عظائم الأمور فهل هذا الذي نشأ فيهم وتربى بينهم وعرفوه صغيرًا وكبيرًا هل كان مجنونًا أو ظهرت عليه أمره الجنون .

قال العلامة الألوسي رحمه الله – والمراد بصاحبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بذلك لتأكيد النكير وتشديده لأن في الصحبة ما يطلعهم على نزاهته صلى الله عليه وسلم مما ذكر. اهـ .

فلم يعرف عنه صلى الله عليه وسلم لا في أقواله ولا في أفعاله أمرات مس أو جنون ولو عرف ذلك لصار مشتهرًا بين الناس وتداولته الأفواه والأقلام .

وفي الآية الثانية يعظهم الحق سبحانه وتعالى أن يكون هذا التفكر في أمارات صلى الله عليه وسلم بعيدًا عن التجمعات والمؤتمرات التي قد ينتصر الإنسان فيها لذاته ويدفع عن غروره ويروج لرأيه ولكن ينبغي أن يكون التفكر في أمره حينما يختلي الإنسان بنفسه بمفرده أو مع آخر ممن يثق فيه وممن هو مقرب إليه حتى يصلا إلى الحق ويعرفا حقيقة محمد التي لا ينكرها عاقل .

قال تعالى : "قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ" .

قال صاحب الظلال – رحمه الله – إنها دعوة للقيام لله بعيدًا عن الهوى بعيدًا عن المصلحة بعيدًا عن ملابسات الأرض . بعيدًا عن الهواتف والدوافع التي تشتجر في القلب فتبتعد به عن الله بعيدًا عن التأثيرات بالتيارات السائدة في البيئة والمؤثرات الشائعة في الجماعة .

دعوة إلى منطق الفطرة الهادي الصافي بعيدًا عن الضجيج والخلط واللبس والرؤية المضطربة والغبش الذي يحجب صفاء الحقيقة .

"أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ" مثنى ليراجع أحدهما الآخر ويأخذ معه ويعطي في غير تأثر بعقلية الجماهير التي تتبع الانفعال الطاريء ولا تتلبث لتتبع الحجة في هدوء .. وفرادى مع النفس وجهًا لوجه في تمحيص هاديء عميق .

"ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِن جِنَّةٍ" فما عرفتم عنه إلا العقل والتدبر والرزانة وما يقول شيئًا يدعو إلى التظنن بعقله ورشده إن هو إلا القول المحكم القوي المبين . اهـ

فالذي يتفكر في أمر محمد صلى الله عليه وسلم بإخلاص وصدق وتجرد عقله من هواه ويخلي قلبه من مشتهاه سيعرف أنه رسول كريم وأن ما جاء به هو الحق المبين .

الوجه الثاني : أنه صلى الله عليه وسلم جاءهم بالحق والمجنون لا يأتي بذلك .

قال تعالى : "أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ"

قال الإمام الفخر الرازي – رحمه الله – قولهم (به جنة) ظاهر الفساد لأنهم كانوا يعلمون بالضرورة أنه أعقل الناس والمجنون كيف يمكنه أن يأتي بمثل ما أتى به من الدلائل القاطعة والشرائع الكاملة ولقد كان من المبغضين له عليه الصلاة والسلام من سماه بذلك . اهـ

فقوله تعالى : "بَل جَاءَهُم بِالحَقِّ" فيه إضراب عما ادعوه وردٌ لما قالوه وإثبات لعقله الكامل وحكمته التامة صلى الله عليه وسلم ؛ فالذي ينطق به هو الوحي والذي جاء به هو الحق ؛ الحق في العقائد بعيدًا عن الظنون والأوهام التي أركستهم إلى عبادة الأوثان . الحق في الشرائع والأحكام التي تضرب يد الظالم وتأخذ بيد المظلوم وتأخذ من الغني وتحسن إلى المحروم . الحق في الأخلاق التي تنشر الحلم وتدعو إلى الصفح وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

فهل من المعقول أن يكون هذا القرآن الذي يتضمن هذا المنهج القويم لكل حركة من حركات الحياة من تأثير الجنون أو تأثير الهلاوس وأضغاث الأحلام التي يراها المجنون ؟ إذا كان هذا جنون فأين العقل إذن ؟

لا شك أن الجنون هو ادعاء هذه الشبهة وافتراءُ هذه الفرية على أعقل العقلاء وأحكم الحكماء .

ثم بينت الآية الكريمة سبب شبهتهم وعلة تهمتهم وهي أنهم كارهون للحق "بَل جَاءَهُم بِالحَقِّ وَأَكثَرُهُم لِلحَقِّ كَارِهُونَ" والكاره للشيء يشنع عليه ليعطي لنفسه عذرًا للإعراض عنه وهم كارهون للدين الحق فأثاروا مثل هذه الشبهة للكفر به والتفصي من تكاليفه .

والمشركون في مكه كانوا يقولون ذلك ويعلمون أنه أعقل الناس وأحكمهم قولاً وفعلاً بدليل أنهم مع عداوتهم له لم يأتمنوا أحدًا على أموالهم غيره فهل يضمن الإنسان ماله عند مجنون ؟

لقد قال المشركون هذه القولة وفي قرارة أنفسهم أنهم كذابون بدليل ما قاله الوليد لهم بينهم وبينه حينما قالوا نقول مجنون . قال : ما هو بمجنون ولقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته.

فهم يعرفون أن القرآن حق وأنه كلام الله أوحاه إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ولكن الكبر وكراهية الحق والرغبة في التفصي من الدين الحق ورغبتهم في دين باطل لا تكليف له دعاهم إلى التقول بمثل هذه الترهات .

الوجه الثالث : نفي التهمة عنه صلى الله عليه وسلم بإثبات الخلق الحسن له ومعلوم أنه لا يجتمع الخلق الحسن والجنون.

قال تعالى : "ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ * فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ "

قال العلامة الألوسي : والمراد تنزيه الرسول صلى الله عليه وسلم عما كانوا ينسبونه إليه من الجنون حسدًا وعداوةً ومكابرة فحاصل الكلام أنت منزه عما يقولون وزعم بعض العلماء أن في الآيات رمزًا إلى أن الأخلاق الحسنة مما لا تجامع الجنون وأنه كلما كان الإنسان أحسن أخلاقًا كان أبعد عن الجنون ويلزم من ذلك أن سوء الأخلاق قريب من الجنون . وقوله : "فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ" أي المجنون . وقيل ذلك في الدنيا بظهور عاقبة الأمر بغلبة الإسلام واستيلائك عليهم بالقتل والنهب وصيرورتك مهيبًا معظمًا في قلوب العالمين وكونهم أذلة صاغرين ويشمل هذا ما كان يوم بدر . اهـ

وهذه الآيات الكريمات من سورة القلم تمثل شهادة من الله سبحانه وتعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم بأنه صاحب الخلق العظيم والخلق العظيم يتنافى مع الجنون وهذه الشهادة جاءت بكل هذه المؤكدات "وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ" لتثبت للرسول صلى الله عليه وسلم كل الكمالات فهو متصف بكل صفات الكمال البشري فهو يجسد الأخلاق التي أوحاها الله في القرآن وهو النموذج الذي أراده الله للإنسان فلا تصدر منه عيبة ولا من لسانه همزة ولا من عينه غمزة ولا من أركانه لمزة . فأين ذلك من الجنون ؟ إن المجنون لا تضمن لسانه ولا أركانه وتخاف من حركاته وتضطرب عند لقائه .

فكلام المشركين في حقه صلى الله عليه وسلم مردود يبطله شهادة العدو والصديق فهو صاحب الخلق الفريد وكفى بشهادة الله له "وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ" فهي أعلى وسام وأرفع مقام .

الخاتمة

في نهاية هذه الرحلة المباركة في تغبير الأقدام لمجابهة الفجار وتسييل الأقلام لمواجهة الأفكار وفي ختام هذا البحث – الرد على الطاعنين في مصدر القرآن الكريم – نستطيع أن نخرج بهذه النتائج والتوصيات :-

أولاً : اليقين الجازم بأن هذا القرآن لا صنعة فيه لمخلوق وأنه كلام رب العالمين ، فعلينا أن نثق في ذلك ولا نركن إلى وساوس الشياطين .

ثانيًا : عدم الخوف على القرآن الكريم فهو كلام الله تعالى وقد تكفل بحفظه ولو اجتمع أهل الأرض على أن ينقضوه ما استطاعوا لذلك سبيلاً ودليل ذلك ما رأيناه من هجمات تتارية وحملات صليبية وأطماع استعمارية وغارات يهودية على أرض المسلمين والقرآن يخرج فى كل مرة أقوى مما كان .

ثالثًا : أن تستشعر الأمة ثقل المسئولية التي على عاتقها فهي مؤتمنة على كتاب الله بتبليغه وبيانه للناس والعمل به وتحكيم شرعه و إظهار صورته الوضيئة للناس .

رابعًا : على الأمة أن تعتز بنفسها ولا تجلد ذاتها فهي وإن تخلفت عن ركب الحضارة المادية فهي الأمة الموحدة على وجه الأرض وهي الأمة التي اصطفاها الله لوراثة كتابه واختص قلوب أفرادها لتكون أوعية لكلامه .

خامسًا : على الأمة أن تعني بهذا القرآن الذى حباها الله به وذلك بالدفاع عنه ومواجهة الطاعنين فيه من الشرق والغرب وعملائهم من أبناء هذه الأمة ولا تتنصل منه وتسلمه إليهم ليعبثوا فيه فهي مسئولة عنه .

سادسًا : أن القرآن الكريم هو شرف هذه الأمة وعزها فعليها أن توليه بالرعاية والاهتمام وذلك بتكريم حفاظه وتقديم العون للمشتغلين به والباحثين فيه ولا يكون غالب الاحتفاء بأهل اللعب واللهو والفجور والفسق حتى أصبح هؤلاء قدوة لكثير من أبناء المسلمين .

وفي ختام هذا البحث أسأل الله عز وجل أن يوفق المسلمين إلى تحكيم كتابه وإقامة شرعه حتى يعودوا إلى سابق عهدهم وتحقيق عزهم ومجدهم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين

أهم المصادر

القرآن الكريم .

أسباب النزول للواحدي ، الناشر : مكتبة الدعوة الإسلامية .

التحرير والتنوير للعلامة محمد الطاهر بن عاشور ، ط / الدار التونسية .

تفسير الشعراوي للإمام محمد متولي الشعراوي ، ط / أخبار اليوم .

تفسير القرآن الكريم " المنار " للشيخ رشيد رضا وأستاذه الشيخ محمد عبده ، ط / دار المنار مصر .

تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير ، ط / مكتبة التراث الإسلامي .

تفسير المراغي للشيخ أحمد مصطفى المراغي ، ط / دار الفكر .

الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ، ط / الريان للتراث .

جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام ابن جرير الطبري ، ط / دار الفكر .

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للإمام شهاب الدين محمود الألوسي ، ط / دار الكتب العلمية – بيروت .

الروض الآنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام للفقيه المحدث أبي القاسم عبدالرحمن السهيلي ، مؤسسة مختار للنشر والطباعة – القاهرة .

السيرة النبوية لابن هشام ، ط / مكتبة الصفا .

في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ، ط / دار الشروق .

مفاتيح الغيب " التفسير الكبير " للإمام الفخر الرازي ، ط / دار الكتب العلمية .

المعجم الوجيز ، ط / مجمع اللغة العربية الخاص بوزارة التربية والتعليم .

النبأ العظيم للعلامة الدكتور محمد عبد الله دراز ، ط / دار القلم .